«الفتنة» في التأصيل الأشعري والتوظيف

سالم المشهور

يذهبُ كثير من الباحثين إلى أن تاريخ علم الكلام عُجن بالسياسة منذ البدايات الأولى له، فالموقف الكلامي في الإسلام منذ نشأته الأولى لم يكن كلاماً في اللاهوت، بقدر ما كان كلاماً في السياسة، و نستطيع القول إن التجربة الأولى للصحابة رضي الله عنهم في إدارة الدولة وما حصل بعد ذلك من اختلاف وجهات النظر بينهم شكلت الأساس الذي قامت عليه كل المذاهب والمدارس الإسلامية التي تحملُ رأياً في السياسة الشرعية.

في مقاله "التوظيف السياسي لمفهوم "الفتنة" في التاريخ الإسلامي تحدّث رضوان زيادة عن جانب من تجربة مدرسة أهل السنة السياسية. من خلال استعراض مفهوم الفتنة وتوظيفاته في أدبيات علم الكلام الأشعري، مُبيناً أنّ هناك علاقة جدلية بين إنتاج المعرفة عند رجل العلم في الإسلام وبين معاناته اليومية لمشاكل الجماهير، وداعيا كذلك إلى الوقوف من جديد على بُنية الخطاب الأصولي، الذي من شأنه تجنيب الفكر الإسلامي المعاصر الكثير من المزالق و المخاطر.

١- بدايات مفهوم الفتنة

جرى اصطلاح أهل الحديث على تسمية الخلاف الذي جرى بين الصحابة رضي الله عنهم بالفتنة، وأرّخوا لها بداية بالتمرّد أو الثورة التي استهدفت نظام الخليفة الراشد عثمان، والتي أدّت إلى مقتله واستشهاده في صورة تراجيدية مؤلمة جدا.

والمحطّة الثانية في الفتنة - حسب وجهة نظر أهل الحديث - كانت في عصر خلافة الإمام علي، حيث قامت معاركَ، شارك فيها جمع من الصحابة، و اعتزل آخرون منهم، محتجين بأنّ هذه المعارك فتنة، وكان من هؤلاء الذين اعتزلوا: سعد بن أبي وقاص وابن عمر.

ورث أهل الحديث هذا الموقف وورثوا كذلك مجموعة من النصوص والروايات المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى الصحابة رضي الله عنهم في وجوب وحدة الكلمة والحفاظ على جماعة المسلمين وحُرمة الخروج السياسي على الإمام، فكانت هذه النصوص والمواقف هي الأساس الذي ستؤسس عليه مدرسة أهل الحديث خيارها السياسي، وهو القبول بإمامة البرّ و الفاجر، وهي بخيارها هذا ستكون في صفّ السلطات الحاكمة، تاركة صفوف المعارضة تتشكل من لفيف من المحكّمة والمعتزلة والقدرية وغيرهم .

٢- أبو الحسن الأشعري وريثُ أهل الحديث

لقد انحاز الأشعري إلى مدرسة أهل الحديث، وغادر معسكر المعتزلة، ولكنّه أخذ معه من سلاح العقل المعتزلي ما سيُتيح له أن يُمارس من خلاله عقلنة فكر أهل الحديث، الذي أصبح ميتاً نتيجة موقفه الشديد من العقل، وبسبب كونه مسجوناً في دائرة النصّ وحرفيّته.

ولم تكن مراكز القرار السياسي غائبة عن نشاط الأشعري وتلامذته، حيث إنّ هذه المدرسة الجديدة استطاعت أن تُحقق نجاحات كثيرة على مستوى التأثير في الخواص والعامة؛ كل هذا دفع السلطات الحاكمة إلى القيام بصفقة كبرى مع الأشاعرة ، خدم فيها الأشاعرة النظام القائم من خلال تأكيدهم و تركيزهم على أدبيات أهل الحديث في الطاعة الكاملة للنظام السياسي القائم ، فهذا إمامهم الأشعري يقول : " و من ديننا أن نُصلّي خلف كل برّ و فاجر و نرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح و الإقرار بإمامتهم ، و تضليل من رأى الخروج عليهم إذا

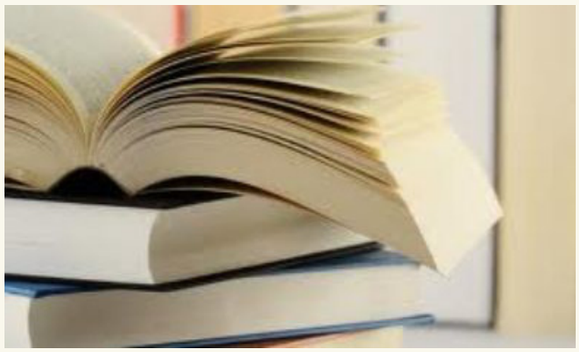

ظهر منهم ترك الاستقامة " و يُعلّق رضوان زيادة على هذا الكلام قائلا : هذه شهادة واضحة عن انزلاق الأشعري من المستوى المعرفي و الكلامي إلى مستوى النظرية السياسية . فالسلطان الجائر ليس جائرا إلا من منظار الذين يقيسون مفاهيمهم على عدالة الرّاشدين .

٣- بُنية الفكر الأشعري

يكاد يُجمع كثير من الباحثين في أدبيات الأشاعرة على أن الفكر الأشعري اتّسم بمحاولات التوفيق في الحقول المعرفية المختلفة و لم يستثنوا في ذلك اللاهوت ولا السياسة. وفي ذلك يقول رضوان زيادة : " لقد صارت الرغبة في التوفيق والجمع بين المتقابلات سلوكاً ثابتا في بُنية الفكر الأشعري".

وعملية الجمع والتوفيق التي قام بها المفكر الأشعري، قامت في الغالب على اتخاذ الموقف الوسط في مختلف القضايا، و لكنها بنظر بعضهم هي جمع بين متناقضات، والغريب في نظرهم أن يتمّ ذلك من دون أدنى شعور بالتناقض من جانب المفكر الأشعري.

٤- إمامة المتغلّب

منذُ انفصل الفقيه عن رجل السياسة بانتهاء فترة الخلافة الراشدة، كان قدر الفقيه في الغالب أن يكون تحت رحمة الخليفة.. رأيناه في كثير من الأحيان يدور في فلكه، ينطق بأمره، ويُفتي بما يُحقق مصلحة دولته.. وكان مستند الفقيه في تبرير هذا خوفه من الفتنة ! لقد صارت الفتنة كقميص عثمان، الذي كان هو أيضا فتنة!

وقبل الحديث عن إمامة المتغلّب عند الأشاعرة أُورد لكم نصّا للإمام أحمد في هذا الشأن، يقول فيه: " من غلبهم بالسيف حتّى صار خليفة وسُمّي أمير المؤمنين لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برّا كان أو فاجرا ".

لقد قال الأشاعرة تبعاً لأهل الحديث بأنّ الإمامة في قريش، ولكنّهم استجابة لأدبيات تجنب الفتنة أصّلوا لشرعيّة السلطات بحجة الكفاية والشوكة ، مع أنّ في ذلك تجاوزاً لشرط القرشيّة، وهذا ما جعل بعض الباحثين يرى أنّ الفكر الأشعري اتّسم بالطابع التبريري، فهو "فقه تبريري" يخدم دولة الواقع.. إنجاز لشرط القرشية عندما كانت الخلافة أموية ثم عباسية، وقبل السلطات البويهية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية من غير أن يُراجع نظريته السابقة واكتفى بتبرير الواقع بالتغلّب وخوف الفتنة؛ لذلك أجدني أوافق بعض الباحثين ومنهم زيادة الذين ذهبوا إلى القول بأنّ النظرية الأشعرية في الإمامة ليست نتاجاً مباشراً لنصّ إلزامي خالص، وإنما هي من صناعة التاريخ، وبعبارة أوضح "هيَ من صناعة السلطة".

٥- أزمة الولاء المزدوج

في هذه النقطة الختامية سنتحدث عن ظاهرة من ظواهر الضعف التي صاحبت المُتكلم الأشعري نتيجة قربه من السلطة.. إنّها أزمة الولاء المزدوج.. فالمُتكلّم الأشعري لم يعد قادرًا على الوفاء بمتطلبات السلطة إلا بالتضحية بمقدار من الولاء للعلم .. وفي المقابل لا سبيل إلى الوفاء للعلم وإخلاص الولاء له إلا بترك القرب من السلطان! هنا ضاع الفقيه المتكلم وحار في أمر نفسه، وظهرت أزمة الولاء المزدوج التي عاشها بعض أئمة الأشاعرة كالغزالي الذي سيتخلّص من هذه الأزمة بهروبه إلى التصوف وتركه لضجيج الحياة مُعتزلا الخليفة وقصوره ومدارسه ورافضا لأعطياته.. ونستطيع أن نجد في تجربة الغزالي وفاء وولاء للتأصيلات الأشعريّة في تجنب الفتنة، فهو لم يجنح إلى معارضة فساد السلطة عندما رأى ذلك وإنما اختار الفرار بدينه واعتناق التصوف كسبيل للخلاص من بلاط الخليفة من غير خروج على قواعد المدرسة الأشعرية، التي ظلّ وفيّاً لها وكتب في وقت تصوفه: قواعد العقائد التي ضمنها في سفره الجليل: إحياء علوم الدين.

almashoor1000@gmail.com